

الزرقاوي: استثمار النهج

ظاهرة التطرف التي يتقلب على مقلاتها الأبرياء هي إحدى تجليات مشكلة معقدة التركيب، تبدأ في التاريخ ولا تنتهي بالثقافة أو الإقتصاد. وبينما التطرف بشقه الموجه إلى الداخل هو نتاج للمشكلة الأم، فإنه أخطر منها ويجد جذوره في عوامل عديدة ساعدت على تشكيل دوائر تربوية محكمة الإغلاق أدت إلى ضيق الأفق وسيطرة الجمود العقائدي وساهمت إلى حد بعيد في إضفاء صفة القداسة على السياسي والثقافي والديني والاجتماعي.

من هنا، ومن خلال قراءة سيرته، يمكن القول أن الزرقاوي لم يشهد في حياته تحولاً فكرياً حقيقياً، بل طرأت عليه إنعطافة نفسية نقلته من موقع إنعدام الهدف والتسكع في شوارع الزرقاء وحاناتها إلى موقع الصحو على بيئة شبابية تعج باليأس والإحباط المتراكم، ولم تجد غير التطرف الديني بديلاً. جرأة الزرقاوي الكبيرة دفعته إلى أقصى حدود الطموح. الطموح وبيئة الإحباط دفعاه إلى أقصى نهايات التعصب والمزايدة على الأصولية السنية في المسألة المذهبية التي وجدت "مسانيدها الفقهية" في فتاوى ابن تيمية من قبل وفي المدرسة الوهابية فيما بعد.

ولعل هذا ما يفسر المواقف الملتبسة لبعض الحركات الإصولية المنخرطة في العمل السياسي العام والرسمي من الجرائم التي ارتكبها بحق العراقيين.

فرصة الزرقاوي الذهبية كانت، إلى جانب الإحتلال، بروز الطرف الآخر من معادلة التقابل المذهبي الأصولي الذي وجد هو الآخر في الفراغ الذي أحدثه سقوط النظام وفي غياب المشروع الوطني الديمقراطي -كقاسم مشترك- فرصة للردح الطائفي المكبوت.

أما الغطاء "الشرعي" والسياسي الذي وفرته قيادة القاعدة للزرقاوي فقد يكون قمة ما حلم به الرجل. صحيح إن زعيمة تنظيم القاعدة أسامة بن لادن وأيمن الظواهري لم ينحدرا إلى مستوى خطاب الزرقاوي فيما يتصل بالشيعة، لكنهما قطعاً لا ينتميان إلى غير المدرسة التكفيرية التي ينتمي إليها، والفارق بين الطرفين هو أن ابن لادن والظواهري يتمتعان بحس سياسي يفقر إليه الزرقاوي وينحدران من موقع إجتماعي هو غير الموقع الذي ينحدر منه، ما أضفى عليهما توازناً ملحوظاً. لكن ذلك لم يترك ثقباً في التغطية ولم يعرقل عملية الدعم المالي المباشر وغير المباشر بالرغم من الحديث عن رسائل نصح وجهت إليه لتغيير أدائه العسكري والسياسي.

رسالة التهديد والوعيد التي وجهها ابن لادن مؤخراً إلى عموم الشيعة بشكل مباشر دون السنة-عرباً وكرداً- الذين كانوا، مثلهم مثل الشيعة، شركاء في إسقاط النظام بواسطة الإحتلال ثم أصبحوا شركاء في العملية السياسية وشركاء في البرلمان وفي الحكومة والرئاسة، تشير إلى أن الرجل في طريقه إلى فقدان ذلك التوازن والعودة بفعل تركة الزرقاوي إلى صدارة التطرف الوهابي. فالرسالة لا تبدو غير استثمار لفصاحة الزرقاوي في التطرف.

لم لا ومعظم القوى السياسية، سواء كانت محلية، إقليمية أو دولية، وباستثناء المواطن العراقي الذي دفع الثمن من دمه ومن لحمه، إستثمرت نهج الزرقاوي لصالحها، وإن بدرجات مختلفة وإتجاهات متباينة؟

فعلى الصعيد الدولي سهل نهج الزرقاوي على الولايات المتحدة وحلفائها تقديم الحرب في العراق للمواطن الغربي عموماً وللأمريكي خصوصاً على إنها حرب في جبهة مفتوحة ضد إرهاب أعمى يستهدف كل مثل الحرية والأنسانية والتقدم، ولعل الأمر كذلك لولا أن المراقب يعرف أن دور الزرقاوي قد جرى تضخيمه من قبل الولايات المتحدة بشكل مقصود وإن إنتقاله وأعوانه إلى العراق قد جرى تحت أنظار أجهزة مخابرات دولية وإقليمية بعضها حليف للولايات المتحدة وآخر يتقاطع معها في نقاط معينة. وقد استهدف هذا التقديم إيجاد مبررات مقبولة تكون بديلاً لمقتضيات الحرب التي تم الترويج لها في ما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل ومزاعم خطورة النظام البائد على السلام العالمي.

وأيضاً لو لا أن المراقب قد تكشفته أمامه بما لا يقبل الشك كما تكشفته لدى المواطن العراقي السلوكية الأمريكية إتجاه العراقيين وإندلاع فضائح التعذيب وروائح جنث القتل الجماعي العمد بحق الأبرياء بشكل لا صلة له بمثل الإنسانية والحرية.

من جهة أخرى شكل نهج الزرقاوي بالنسبة للأمريكان ورقة ضاغطة لترويض كل القوى السياسية التي سايرت النهج الأمريكي في إسقاط النظام ولكنها لم تصل إلى حد التحالف أو التبعية لأسباب سياسية وعقائدية معروفة.

الأردن كانت أهم محطات الأستثمار الإقليمي لنهج الزرقاوي، فالجريمة التي أودت بحياة مواطنين أبرياء كانوا يحتفلون بعرس قد أثارت حفيظة كل ذي ضمير وأدت إلى إنخفاض نسبة التعاطف والتأييد مع تنظيم القاعدة بعدما وصلت إلى درجات أثارت الخوف لدى المسؤولين الأردنيين.

دول مجلس التعاون الخليجي نظرت؛ بارتياح ممزوج بالخوف: مجرم يقلم أطافر حلفاء إيران في العراق، ولكن.... ماذا سيفعل عندنا؟

أو بخوف ممزوج بالإرتياح: من المحتم أنه سوف لا يتركنا، ولكن أنصاره في البلاد مشغولون بتقديم الدعم له أو يغادرونها الآن للإلتحاق به... دعوهم يملون.

إيران وسوريا تمسكان بطرفي سلة تفاهات لتسوية العلاقات المتدهورة بينهما وبين الغرب، في هذه السلة يبدو العراق الأكثر وزناً ونهج الزرقاوي الأكثر خطورة.

على الصعيد الداخلي إستثمر أصحاب فكرة فدالية الجنوب نهج الزرقاوي لتعزيز هذه الفكرة في ذهنية الشيعي العراقي باعتبارها البديل عن المواجهة الطائفية التي يراد للشيعية أن ينجروا إليها، كما جرى إستخدام هذا النهج كخط إعتراض وعرقلة بوجه إندفاع التيار الصدري وشخصيات روحية شيعية أخرى نحو التواصل وعبور الحواجز الطائفية، وذلك بغرض دفع هؤلاء إلى البقاء في دائرة الإنتماء الطائفي. قوى سياسية وهيئات سنية لم تشأ إدانة نهج الزرقاوي واستثمرت نهجه في رفع سقف مطالبها للإشتراك في العملية السياسية.

حزب البعث من جانبه لم يستطع سوى القول "أن المقاومة العراقية بريئة من العمليات التي تستهدف المدنيين" ولم يرتق موقفه إلى مستوى إدانة النهج أو تسمية أصحابه، وذلك رغبة منه في عدم التصادم مع تنظيم القاعدة والحفاظ على حرية تحرك عناصره في البيئة السنية العربية وفي زيادة مشاغل أركان النظام الجديد بالأمن اليومي للناس، ولكن على حساب الناس أنفسهم.

أما القيادة الكردية فقد إنصرفت في خضم كل هذا إلى الأهتمام بالشؤون الكردستانية، في دهوك وفي السليمانية، كما في بغداد وأربيل.

جواد الساعدي

صحافي عراقي

4/تموز/2006